نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني: أول محاولة في العلوم الإنسانية؟

(الجزء الأول)

أ. سمير أبو زيد
الجمعية الفلسفية المصرية،
مصر

مقدمة :

الشيخ عبد القاهر الجرجاني، المتوفى عام 471 هجريا، هو أحد أعلام الفكر العربي الإسلامي. وقد ذاع صيته بسبب تصنيفه مؤلفيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" وطرحه لنظريته في النظم التي هي نظرية في اللغة. وقد اتخذ هذين المؤلفين مكانة مركزية في البلاغة العربية، واعتبر الشيخ عبد القاهر المؤسس الحقيقي لعلم المعاني وأول من قسم البلاغة إلى قسميها الأساسيين المعاني والبيان، قبل إضافة القسم الثالث، البديع.

ونتيجة لتطور علوم اللغة والنقد الأدبي في الغرب، أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلاديين، واطلاع الفكر العربي على هذه العلوم، ظهر مرة أخرى الاهتمام بعملي الشيخ عبد القاهر. فقد ظهرت في الربع الأخير من القرن العشرين العديد من الأعمال لمتخصصي اللغة والنقد الأدبي العرب التي تعيد قراءة أعمال الشيخ من وجهة نظر معاصرة. ورأي العديد منهم أن الجانب الذي يخص النقد الأدبي في عمليه المذكورين يعد من زوايا عدة سابقا لعصره ومتفقا مع العديد من التصورات المعاصرة. كما رأي البعض الآخر أن أعماله تتضمن مبادئ في فلسفة اللغة لم تظهر إلا في أوائل القرن العشرين.

ليست قضيتنا في هذا البحث هي تقديم ادعاء جديد بسبق الأعمال العربية للفكر الغربي. ولكن قضيتنا هي القيام بمسئوليتنا نحو القراءة الصحيحة لتراثنا الفكري ووضعه في مكانه الصحيح في تاريخ الفكر. من هذه الزاوية يعد البحث في أعمال الشيخ عبد القاهر وفهمها على الوجه الصحيح، وهو ما نهدف إليه في بحثنا هذا، مشروعا. وفي هذا البحث نستكمل ما سبق أن بدأناه في أبحاثنا من محاولة لفهم أعمال الشيخ، ليس على مستوى البحث اللغوي أو البلاغي أو النقد الأدبي، أو حتى فلسفة اللغة، وإنما على مستوى المنهج.

وقد سبق أن عالجنا في عمل آخر المنهج الذي استخدمه الشيخ للتوصل إلى نظريته في النظم في سياق معالجته لقضية الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم(1). وأثبتنا أولا، أن معالجته لهذه القضية قدمت منهجا جديدا للتعامل مع القضايا الدينية – العقلية المشتركة. وثانيا أن استخدام هذا المنهج قد أدى إلى ظهور نظريته في النظم باعتبارها نظرية عقلية خالصة. وفي هذا العمل نبين أن هذه النظرية قد تضمنت الشروط اللازم تحققها في أي علم إنساني بالمعنى العام، وهو ما يؤدي إلى أن يكون طرح الشيخ عبد القاهر لنظريته في النظم أول تطبيق في العلوم الإنسانية بالمعنى المعاصر.

نشأة العلوم الإنسانية

انتقلت أوروبا من العصر الوسيط إلى العصر الحديث بشكل تدريجي، ويؤرخ لبدايات العصر الحديث عادة بالفترة ما بين منتصف القرنين الرابع والخامس عشر(2). وقد تميز هذا التحول بالظهور التدريجي لنظرة جديدة إلى العالم هي النظرة العلمية، وبسمة أساسية هي ظهور العلم بمعناه الحديث(3). واعتمد العلم الحديث على مفاهيم أساسية عبرت في مجموعها عن التحول في الفكر الإنساني من الاعتماد على التصورات

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العقلية إلى الاعتماد على حقائق الواقع. وعلى النظرة الموضوعية للعالم التي لا تتأثر بالتصورات الذاتية ولا بالتوجهات الدينية أو الأيديولوجية.

ونتيجة للنجاح المتواصل للتطبيقات العلمية في الطبيعة وظهور الاكتشافات المتوالية في كل المجالات بدءا من الفلك إلى الفيزياء ثم الكيمياء ثم البيولوجيا وحتى اكتشاف الذرة، وما تبع ذلك من اكتشافات تكنولوجية متوالية غيرت وجه العالم. نتيجة لذلك ظهرت التصورات التي تفيد بأن مفهوم قوانين الطبيعة ليس خاصا فقط بالطبيعة الجامدة والحية، وإنما هناك أيضا قوانين للإنسان وللمجتمعات الإنسانية(4). فظهرت أيضا المحاولات المتوالية لاستخدام المنهج العلمي في المجالات المرتبطة بالإنسان. فنشأت العلوم الإنسانية بالمعنى الحديث مثل علوم التاريخ، والنفس، والاجتماع، واللغة..الخ من علوم الإنسان.

ولأنه من المعلوم حاليا أن العلم العربي في مجالات عديدة كان متطورا بشكل كبير وأنه اعتمد، بالمعنى الحديث، على مفاهيم علمية أساسية، كما في علوم الفلك والكيمياء والبصريات والطب والتطبيقات التكنولوجية الميكانيكية. وأن العلم العربي قد انتقل إلى أوروبا عبر الأندلس وأنه مثل نقطة البدء لظهور العلم الأوروبي الحديث. لذلك يمكن القول بأن الأسس التجريبية للعلم الأوروبي الحديث تجد جذورها في العلم العربي، وأن المفاهيم الأساسية للعلم الحديث قد استكملت مع اكتمال ظهور الفكر الأوروبي الحديث(5).

وإذا كان من المسلم به بشكل كبير أن العلم بمعناه الحديث، فيما يخص العلوم الطبيعية، له جذوره التجريبية في العلم العربي، إلا أن الوضع ليس كذلك بالنسبة للعلوم الإنسانية. فباستثناء ما يذكر عادة من أن نظرية العمران عند ابن خلدون تمثل أول محاولة في علم الاجتماع، وبالتالي أول محاولة في العلوم الإنسانية، باستثناء ذلك يذكر عادة أن العلوم الإنسانية هي ابتكار أوروبي خالص. خاصة وأن نظرية العمران في مقدمة ابن خلدون تصنف أحيانا على أنها تقع في مجال فلسفة التاريخ، وليس في علم الاجتماع(6).

والأسلوب العلمي، سواء في العلوم الطبيعية أو الإنسانية، يتسم بسمات أساسية هي التجريبية والسببية والاستقراء والكشف عن القوانين التي تحكم الطبيعة. في هذا الإطار العام تتميز العلوم الإنسانية عن العلوم الطبيعية بسمتين أساسيتين. أولا، أنها تتعامل مع وقائع أنشأها الإنسان، ثانيا، أنها تتسم بالشمول بالنسبة للإنسان بما هو إنسان. فالقانون الذي يحكم الظاهرة الاجتماعية، مثلا، لا يختلف من مجتمع لآخر ولا من حضارة لأخرى.

في حدود هذين الشرطين الأساسيين يمكن القول بأنه لم تظهر في تاريخ الإنسانية قبل بدايات القرن الثامن عشر الميلادي أية علوم تستوفي هذين الشرطين، باستثناء كما ذكرنا نظرية العمران عند ابن خلدون. وفيما يخص الحضارة الإسلامية القديمة ظهرت علوم عديدة تستوفي أحد هذين الشرطين، وهو شرط الاعتماد على الواقع الإنساني واستخدام الاستقراء لاكتشاف قوانين هذا الواقع. فقد ظهر علم أصول الفقه والذي موضوعه هو تطبيق المبادئ الدينية العامة على الواقع الإنساني، مما أدى إلى ظهور قواعد للمعاملات في المجتمع الإسلامي، هي بمثابة قوانين اجتماعية عامة(7).

ولكن علم أصول الفقه، والعلوم الإسلامية الأخرى التي استخدمت مفهوم الاستقراء، لم تستوف الشرط اللازم الثاني لظهور علم إنساني بالمعنى العام، وهو أن تطرح باعتبارها علما للإنسان بما هو إنسان. فكافة هذه العلوم هي علوم إسلامية تعتمد بشكل أساسي على تصورات الدين الإسلامي للإنسان وللمجتمع الإنساني. فالواقع، إذن، هو أنه من الصحيح أنه قد ظهرت في الحضارة الإسلامية علوم تجريبية طبيعية عديدة بالمعنى الحديث، إلا أنه لم تظهر علوم إنسانية بالمعنى الحديث تستوفي الشرطين المذكورين.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

ولكن يبدو أن هناك استثناءا واحدا لهذا الحكم لم يأخذ، لأسباب عدة، حقه من البحث هو نظرية النظم عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني. فنظرية النظم هي نظرية في اللغة طرحت بشكل اساسي في سياق معالجة الشيخ عبد القاهر لقضية الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم. والنظم، كمفهوم يعبر عن الجانب التعبيري في اللغة، كان موجودا في البلاغة العربية قبل أن يعالجه الشيخ عبد القاهر. ولكنه لم يكن مطروحا كنظرية لها قواعد يمكن تطبيقها للتوصل إلى التعبير الصحيح عن المعنى. وإنما كان مفهوما عاما غير متميز عن الجوانب الأخرى للغة والمتمثلة في "المجاز" أي الجانب الخيالي في اللغة، و"البديع" الذي يمثل الجانب الجمالي الشكلي في اللغة.

وقد تمكن الشيخ عبد القاهر في سياق معالجته لقضية الإعجاز اللغوي في القرآن من وضع نظرية واضحة يمكن بواسطتها تمييز التعبير الصحيح عن المعنى من التعبير غير الصحيح، أو الركيك، عنه. وللتوصل إلى قواعد للتعبير الصحيح اعتمد الشيخ على كلام العرب وأشعارهم، فمثل الشعر العربي الوقائع الإنسانية التي قام باستقرائها للتوصل إلى هذه القواعد. كما اعتمد الشيخ على مفاهيم إنسانية عامة عن طبيعة اللغة فأصبح مفهوم النظم مفهوما عاما غير مرتبط باللغة العربية ذاتها. فتحقق بذلك لنظرية النظم عند الشيخ عبد القاهر الشرطين الأساسيين اللازمين لظهور علم من العلوم الإنسانية. هو علم "النظم"، الذي هو جزء من علوم اللغة، وكان ذلك في القرن الخامس الهجري، العاشر الميلادي.

وطبقا للأسس العلمية الصحيحة، أي تصور جديد، أو فرضية علمية جديدة، يجب أن يتعرض للنقد بشكل دقيق قبل أن يتحول إلى نظرية ثابتة. لذلك من الطبيعي أن يواجه هذا التصور الجديد، الذي نطرحه في هذا البحث، تحديات عديدة.

فيتمثل التحدي الأول في تفسير كيف يمكن أن تكون نظرية في اللغة مطروحة بهدف تفسير الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، وهو قضية دينية، نظرية علمية إنسانية بالمعنى العام. ويتمثل التحدي الثاني في الإثبات الموضوعي، من النص ذاته، أن نظرية النظم قد انطوت فعلا على استخدام اسلوب الاستقراء العلمي بالمعنى الصحيح، وأنها نظرية إنسانية بالمعنى العام. أما التحدي الثالث فيتمثل في تفسير أن عمل عبد القاهر الذي يحتوي على نظريته في النظم "دلائل الإعجاز" قد تم في القرن الخامس الهجري، العاشر الميلادي، ومع ذلك لم ينظر إليه باعتباره عملا من العلوم الإنسانية حتى الآن، أي بعد عشرة قرون من ظهوره. والرد على كل تحد من هذه التحديات هو موضوع هذا البحث.

منهج البحث

لذلك ينقسم البحث إلى ثلاثة أقسام. الأول يعالج كيفية ظهور نظرية النظم عند الشيخ عبد القاهر في إطار معالجته لقضية الإعجاز اللغوي في القرآن. وفي هذا القسم نبين أن الشيخ عبد القاهر استحدث منهجا جديدا لم يستخدم من قبل حتى يمكنه طرح نظرية علمية بشكل كامل، هي نظرية النظم، مع الاحتفاظ بالجانب الديني للقضية الذي هو مفهوم "الإعجاز" في القرآن. وقد استطاع الشيخ من خلال هذا المنهج أن يمهد لمعالجته العقلية والعلمية الكاملة لمفهوم النظم. وذلك من خلال فصل المفهوم الديني "الإعجاز" في مؤلف منفصل ثم فصل المفهوم الشعوري "المجاز" في مؤلف آخر منفصل أيضا. فظهرت بنية فكر الشيخ متمثلة في كتبه الثلاث المعروفة "الرسالة الشافية في الإعجاز"، و"دلائل الإعجاز"، و"أسرار البلاغة"، والتي هي مرتبطة ببعضها ومنفصلة عن بعضها في ذات الوقت.

أما القسم الثاني فيعالج الكيفية التي استخلص بها الشيخ نظريته في النظم ويبين من النصوص ذاتها كيف يمكن أن تكون هذه النظرية علما إنسانيا بالمعنى العام. ولتحقيق ذلك اعتمدنا بشكل كامل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

على النصوص الواردة بالكتاب الأساسي "دلائل الإعجاز"، وقمنا بإعادة تنظيمها وعرضها بشكل يتفق مع عناصر المنهج العلمي في العلوم الإنسانية. فظهر بشكل واضح أن أسلوب الشيخ يتطابق بشكل تام مع منهج الاستقراء العلمي. وليس هذا غريبا فهذا المنهج كان معروفا للعرب في ذلك الوقت، كما أن الشيخ عاش في زمن كانت العلوم اليونانية قد ترجمت ولا بد أنه قد اطلع عليها.

ومن المهم بيان أن التقرير باستخدامه للاستقراء لا يرجع فقط إلى النصوص المحدودة التي أوردناها وإنما يظهر أيضا من مطالعة النص نفسه. حيث يتبين من الحجم الهائل للأمثلة في الكتاب أن الشيخ أراد أن يبين أنه اعتمد على عدد كبير من "الوقائع" حتى يصل إلى كل قاعدة جزئية، ثم على عدد كبير من "الوقائع" للتحقق من صحة القاعدة.

أما في القسم الثالث فنبين أسباب عدم النظر إلى نظرية النظم باعتبارها تطبيقا للمنهج العلمي في العلوم الإنسانية. فنبين أن عصر الشيخ عبد القاهر قد مثل ذروة الحضارة الإسلامية وأنه بعد ذلك بدأ الإتباع وتوقف التفكير الإبداعي حتى أوائل القرن العشرين، فكان طبيعيا أن لا يدرك العرب القيمة الحقيقية لهذا العمل. وفي نفس الوقت لم تكن قضية دينية مثل الإعجاز اللغوي في القرآن، نظرا لخصوصيتها الشديدة، لتجذب انتباه المستشرقين. لهذا وذاك أصبح الكشف عن الأعمال التي تعبر عن خصوصيات تراثنا الفكري، ومن ذلك أعمال الشيخ عبد القاهر، واقعة على أكتافنا نحن في عصرنا الحالي.

أولا : نظرية النظم وقضية الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم

القضية الأولى التي نعالجها في هذا البحث هي كيف يمكن أن تظهر نظرية علمية في اللغة، بالمعنى الحديث للعلوم الإنسانية، في إطار قضية دينية هي قضية الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم. والرد على هذا السؤال يقتضي الكشف عن المنهج الذي اتبعه الشيخ عبد القاهر لمعالجة هذه القضية. ومن المهم بيان أنه رغم أن العقود القليلة الماضية قد شهدت اهتماما كبيرا بأعمال الشيخ عبد القاهر إلا أن هذا الاهتمام تركز على أعماله من الجانب اللغوي فقط(8). ولم تتجه إلى تفسير منهجه في معالجة قضية الإعجاز اللغوي في القرآن، والعلاقة بين كتبه الثلاثة التي عالجت هذا الموضوع وهي "الرسالة الشافية في الإعجاز"، و"دلائل الإعجاز"، و"أسرار البلاغة".

والاهتمام بالزاوية المنهجية معناه محاولة الكشف عن المنهج الذي اعتمد عليه الشيخ لمعالجة هذه القضية والذي أنتج في النهاية نظريته في النظم. ويتحقق ذلك من خلال الكشف عن العلاقة بين كتابه "الرسالة الشافية في الإعجاز" والذي هو مشهور فقط عند متخصصي علوم الدين وكتابه الثاني "دلائل الإعجاز"، والذي هو مشهور عند متخصصي اللغة العربية. ومن خلال فهم الدافع وراء تصنيف مؤلفين مستقلين في موضوع واحد، والسبب في تصنيفه لهما بنفس العنوان تقريبا. وهو ما لم تلتفت إليه الأعمال المعاصرة عنه رغم أنها سابقة ليس لها نظير في الفكر الإسلامي.

القضية الدينية والقضية العقلية

لذلك المدخل الصحيح لفهم القيمة الحقيقية لنظرية النظم عند الشيخ عبد القاهر هو فهم أسلوب تناوله لقضية الإعجاز اللغوي في القرآن. ولتحقيق ذلك يجب بيان الوضع الذي اتخذته هذه الإشكالية في الزمن السابق لعصر الشيخ عبد القاهر. فلم يكن تناول الشيخ لهذه القضية سوى امتدادا لسلسلة من المفكرين واللغويين العرب والمسلمين. ذلك أن هذه القضية قد شغلت مكانة مركزية في البلاغة العربية في الفترة ما بين القرن الثاني الهجري حتى القرن السابع الهجري. وقد انقسم المفكرون واللغويون العرب في تفسير ظاهرة الإعجاز اللغوي في القرآن إلى قسمين أساسيين، قسم يقول بالصرفة وقسم يقول بالنظم.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والقول بالصرفة معناه أن وجه الإعجاز في القرآن الكريم هو أن الله قد "صرف" العرب عن أن يأتوا بمثله، وليس في أن القرآن معجز في لغته ذاتها. أما القول بالنظم فمعناه أن وجه الإعجاز هو في لغة القرآن ذاتها، أو نظمه. وأنها قد أعجزت العرب عن أن يجاروها وهم الذين يتميزون عن غيرهم من الأمم بالشعر والمفاخرة باللغة.

ولم يكن ذلك معبرا عن خلاف في التوجه الفكري بين الفرقتين الكلاميتين الأساسيتين في الفكر الإسلامي، المعتزلة والأشاعرة. فعلى رأس القائلين بالصرفة النظام المعتزلي (ت231هـ)، وفي نفس الوقت كان من القائلين بالنظم القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت415هـ)، وهو أحد كبار منظري المعتزلة أيضا(9)

وكان السبب الرئيس للاختلاف حول تلك القضية هو أنها ذات بعد ديني، وهو الإعجاز، وفي نفس الوقت ذات بعد عقلي (أو علمي)، وهو جودة التعبير اللغوي. فإذا اعتمدنا في مقاربتها على الجانب الإيماني فقط، أي على الاعتقاد في الإعجاز بناء على الإيمان بقدسية النص القرآني، كان ذلك بمثابة تناولا دينيا لقضية عقلية، هي جودة التعبير اللغوي. أما إذا اعتمدنا في مقاربتها على الجانب العقلي فقط، وعلى أن اللغة لها قواعد إنسانية محددة تضبط أسلوب التعبير، وبالتالي لا يمكن خرق تلك القواعد ويظل الكلام مفهوما، يكون ذلك بمثابة تناولا عقليا لقضية دينية، هي الإعجاز اللغوي في القرآن. والقضية بهذه الصورة تمثل قضية "دينية- عقلية"، أي قضية مشتركة بين مجالين من مجالات الفكر الإنساني، هما مجال الفكر الديني ومجال الفكر العقلي(10)

فالفكر الإنساني ينقسم بصفة أساسية إلى مجالات ثلاث، هي مجال الفكر الديني (الإيماني)، ومجال الفكر العقلي (المنطقي)، ومجال الفكر العلمي (التجريبي). وفي بعض الأحوال، وفي قضايا معينة، تنشأ إشكالية تتمثل في التعارض بين مجالين أو أكثر من تلك المجالات. وتتضم قضية تفسير الإعجاز اللغوي للقرآن إلى هذه النوعية من القضايا المشتركة التي تتضمن نوعا من التعارض بين المجالات وتحتاج إلى حلول إبداعية جديدة. وقد تميز الفكر "الغربي" في معالجته لهذه القضايا بالفصل التام بين كل من تلك المجالات، وفي تغليب التفكير العقلي في حالة القضايا المشتركة.

ولكن هناك منظور آخر يمكن من خلاله مقاربة مشكلة التداخل بين مجالات الفكر الإنساني الثلاث. وهذا المنظور يعتمد على أن القضية التي تتضمن مثل هذا التداخل هي غالبا قضية مركبة. ويمكن بقدر من الفكر الإبداعي تحليلها إلى قضيتين منفصلتين أحدهما قضية دينية والأخرى قضية عقلية أو علمية وبينهما علاقة. وبذلك يمكن حل كل قضية منهما ضمن مجالها الفكري الصحيح. وكيفية تحليل القضية وإنشاء العلاقة بينهما هي عملية إبداعية في المقام الأول، وتعتمد بصفة أساسية على طبيعة القضية المطروحة.

تحليل القضية المشتركة "الدينية - العلمية"

وقضية "الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم" هي من هذا النوع من القضايا المشتركة، فهي قضية "دينية- علمية". ويؤدي تغليب الجانب الديني عليها إلى تجاوز الجانب الديني حدوده، كما يؤدي تغليب الجانب العلمي عليها إلى أن يتجاوز الجانب العلمي حدوده. فكان الحل الوحيد الملائم هو تحليلها إلى قضيتين أحدهما دينية والأخرى علمية وبينهما علاقة. وهذا هو بالضبط ما فعله الشيخ عبد القاهر، فيما يعد إنجازا غير مسبوق في تاريخ الفكر.

فقد قام بتحليل قضيته إلى قضية دينية موضوعها هو إثبات إعجاز التعبير اللغوي في القرآن الكريم ، وأنه يعلو فوق قدرة البشر، تأسيسا على القضية العقلية. والقضية العقلية موضوعها أن جودة التعبير ترجع إلى جودة "النظم"، وأن جودة النظم يمكن أن تتدرج بلا حدود. وتكون العلاقة المشتركة بين القضيتين هي مفهوم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"التدرج بلا حدود". وذلك حيث حدها الأدنى هو القدرة الإنسانية ومستواها المحدود في جودة النظم، وحدها الأعلى هو القدرة الإلهية ومستواها غير المحدود في جودة النظم. وقد قام الشيخ عبد القاهر بذلك من خلال تصنيفه لموضوع واحد هو "الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم" في مؤلفين منفصلين، الأول هو "الرسالة الشافية في الإعجاز"(11) والثاني هو "دلائل الإعجاز"(12).

وفي المؤلف الأول كلمة "الشافية" تعني "اليقينية"، ويكون معنى العنوان هو "الرسالة التي تفيد اليقين في الإعجاز"، ويكون موضوعها هو القضية الإيمانية اليقينية في الإعجاز. أما الثاني وهو "دلائل الإعجاز"، فإن لفظ "الدلائل" يعني "الدلائل العقلية"، فيكون معنى العنوان هو "الدلائل العقلية على الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم"، وموضوعها هو القضية العقلية التي يرتكز عليها مفهوم الإعجاز، وهي مفهوم "النظم".

هذا هو في إيجاز المنهج الذي استخدمه الشيخ عبد القاهر لمعالجة القضية الشائكة التي أدت إلى الانقسام بخصوصها في الفكر الإسلامي. ولا يكشف عن هذا المنهج تصنيفه للمؤلفين المذكورين واختصاص كل منهما بجزء من الموضوع فقط، وإنما أيضا النصوص التي تضمنها كتابه الأساسي "دلائل الإعجاز" والتي طرحت هذا المنهج بشكل واضح.

ففي سياق معالجته لمفهوم النظم في "دلائل الإعجاز" يثبت الشيخ العلاقة بين القضيتين الدينية والعلمية. حيث يبين أن إثبات الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، وهو القضية الدينية، يعتمد على إثبات جودة النظم في القرآن، ويسميه "المزية"، وأن يثبت أن جودة النظم يمكن أن تعلو فوق قدرة البشر، وهو القضية العقلية. وبألفاظه الموجزة يقول:

"وذلك أنه لا يثبت إعجاز حتى تثبت مزايا تفوق علوم البشر وتقصر قوى نظرهم عنها"(13)

ويتضمن مؤلفه "الرسالة الشافية" القضايا "الإيمانية" التي تثبت الإعجاز في النص ذاته. فيبين أن القرآن قد تحداهم في أن يأتوا بمثله، ولكنهم رغم فصاحتهم اللغوية وحرصهم على معارضته لم يتمكنوا من تأليف كلام مثله، كما يلي،

"وإذا ثبت أنهم [أي العرب] الأصل والقدوة ، فإن علمهم العلم.. فبنا أن ننظر في دلائل أحوالهم وأقوالهم حين تلي عليهم القرآن وتحدوا إليه وملئت مسامعهم من المطالبة بأن يأتوا بمثله..وإذا نظرنا وجدناها تفصح بأنهم لم يشكوا في عجزهم عن معارضته والإتيان بمثله، ولم تحدثهم أنفسهم بأن لهم إلى ذلك سبيلا على وجه من الوجوه"(14)

ويترتب على إثبات علمهم بعلو لغة القرآن وعجزهم عن مجاراته القول بأنه معجز،

"وإذا رأينا الأحوال والأقوال منهم قد شهدت ، كالذي بان، باستسلامهم للعجز وعلمهم بالعظيم من الفضل والبائن من المزية، الذي إذا قيس إلى ما يستطيعونه ويقدرون عليه في ضروب النظم وأنواع التصرف، فإنه الفوت الذي لا ينال والرقي إلى حيث لا تطمح الآمال، فقد وجب القطع بأنه معجز"(15)

فالقضية الإيمانية في "الرسالة الشافية" تتسم بالبنية التالية، أولا، أن القرآن قد تحدى العرب أن يأتوا بمثله، ثانيا، أن العرب كانوا على درجة عالية من الفصاحة اللغوية، ثالثا، أنهم أدركوا أن لغة القرآن تعلو على لغة العرب، رابعا، أنهم كانوا حريصين على تحدي القرآن وإثبات أنهم يستطيعون أن يجاروه في البلاغة والفصاحة، خامسا، أنهم رغم حرصهم على تحدي القرآن فشلوا في ذلك. ولذا وجب القطع بأن القرآن معجز في نظمه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهذه النتيجة الأخيرة ترتكز على قضيتين أساسيتين. الأولى، الإيمان بأن القرآن منزل من عند الله، وهي القضية الإيمانية. والثانية، وجود معيار عقلي لتقييم كلام العرب وكلام القرآن وإثبات أن جودة الكلام يمكن أن تعلو إلى درجة لا حدود لها. وهذه القضية الثانية، هي القضية العقلية التي يتضمنها كتابه "دلائل الإعجاز". ولأن هذا المعيار لم يكن موجودا من قبل مثل ذلك تحديا كبيرا أمام الشيخ عبد القاهر كانت نتيجته تصديه لإنجاز هذا المعيار، وهو ما تمثل في طرحه لنظريته في النظم.

الإعلان عن العلم الجديد

ولذلك يستهل الشيخ كتابه "دلائل الإعجاز" بطرح قضيته المحورية وإشكاليته الأساسية، وهي غياب مفهوم واضح لجودة اللغة، ويوضح ذلك كما يلي:

"إلا أنك لن ترى على ذلك نوعا من العلم قد لقي من الضيم ما لقيه، ومن الحيف ما مني به، ودخل على الناس من الغلط في معناه ما دخل عليهم فيه..ترى كثيرا منهم لا يرى له معنى أكثر مما يرى للإشارة بالرأس والعين وما يجده للخط والعقد "(16)

ثم يضيف أن لا يكفي العلم بقواعد اللغة بل هناك عناصر أخرى خافية هي السبب في تفاضل الكلام بعضه عن بعض، وأن الكلام يمكن أن يرتقي في جودته حتى يخرج عن قدرة البشر. فالقضية هي بيان الأسباب التي تؤدي إلى أن يتميز كلام عن آخر، ويعلو بعضه فوق بعض حتى يخرج عن قدرة البشر. وذلك كما يوضح استكمالا للنص السابق،

"لا يعلم أن هاهنا دقائق وأسرار طريق العلم بها الروية والفكر ولطائف.مستقاها العقل..وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام ووجب أن يفضل بعضه بعضا، وأن يبعد الشأو في ذلك وتمتد الغاية ويعلو المرتقى ويعز المطلب حتى ينتهي الأمر إلى الإعجاز، بل ويخرج عن طوق البشر"(17)

ويزيد الشيخ وضوح قضيته الأساسية فيبين أن هذه الدقائق والأسرار التي تتسبب في المزية في كلام القرآن ليست سوى مزايا نظمه وأسلوب ترتيب الألفاظ،

"فقيل لنا قد سمعنا ما قلتم فخبرونا عماذا أعجزوا؟ فقلنا أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه.. وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة..فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانه ولفظة ينكر شأنها"(18)

كما يزيد القضية إيضاحا بالرد على الآراء السابقة عليه ممن قالوا في النظم آراء عامة مجملة غير تفصيلية بأن يطالبهم بوضوح مفهومهم للنظم، كما يلي،

"وإذا كان هذا هكذا، علمت أنه لا يكفي في علم "الفصاحة" أن تنصب لها قياسا ما، وأن تصفها وصفا مجملا ، وتقول فيها قولا مرسلا، بل لا تكون من معرفتها في شيء ، حتى تفصل القول وتحصل، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم وتعدها واحدة واحدة، وتسميها شيئا شيئا ، وتكون معرفتك معرفة الصانع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذي في الديباج"(19)

ثم يكشف الشيخ عبد القاهر أنه بصدد تقديم علما جديدا له فوائد جليلة،

"وهو باب من العلم إذا أنت فتحته اطلعت منه على فوائد جليلة ومعان شريفة، ورأيت له أثرا في الدين عظيما وفائدة جسيمة، ووجدته سببا إلى حسم كثير من الفساد فيما يعود إلى التنزيل وإنه ليؤمنك من أن تغالط في دعواك وتدافع عن مغزاك..وأن تكون عالما في ظاهر مقلد ومستبينا في صورة شاك"(20).

ويدرك الشيخ أن التوصل إلى هذا العلم وبيان المعيار لتمييز جودة الكلام (ويسميه المزية) ليس بالأمر الهين، لأنه علم جديد. وهو علم جديد لأن من سبقوه اعتقدوا أنه موضوع غير قابل للمعرفة "منكر له من

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أصله"، وأنه باب غير قابل للشرح "لا تقوى عليه العبارة"، وأن أقصى ما وصل إليه من سبقوه هو الشعور والإحساس العام بحسن النظم "حسن قد عرفه على الجملة"، بدون إثبات عقلي لذلك "من غير أن يتبع بيانا أو يقيم عليه برهانا"، ونورد هنا هذا النص بشيء من الإطالة لكونه نصا مركزيا في الموضوع،

"وينبغي أن نأخذ الآن أمر المزية، وبيان الجهات التي منها تعرض..وإنه لمرام صعب ومطلب عسير، ولولا أنه على ذلك، لما وجدت الناس بين منكر له من أصله، ومتحيل له على غير وجهه، ومعتقد أنه باب لا تقوى عليه العبارة، ولا يملك فيه إلا الإشارة، وأن طريق التعليم إليه مسدود وباب التفهيم دونه مغلق، وأن معانيك فيه معان تأبى أن تبرز من الضمير وأن تدين للتبيين والتصوير، وأن ترى سافرة لا نقاب عليها وبادية لا حجاب دونها، وأن ليس للواصف لها إلا أن يلوح ويشير أو يضرب مثلا ينبئ عن حسن قد عرفه على الجملة وفضيلة قد أحسها، من غير أن يتبع ذلك بيانا ويقيم عليه برهانا، ويذكر له علة ويورد فيه حجة. وأنا أنزل لك القول في ذلك وأدرجه شيئا فشيئا وأستعين الله تعالي عليه، وأسأله التوفيق"(21).

وبذلك يضع الشيخ عبد القاهر الجرجاني نفسه في مواجهة "طموح" مع موضوع "صعب" لم يتمكن السابقين عليه من أساطين علم اللغة من سبر أغواره، وهو طرح نظرية عقلية خالصة "للنظم"(22).

وكان سبب شعور الشيخ بصعوبة المهمة "وعسرها" هو أنه لم يجد، وهو العالم المدقق المطلع، أية سابقة مماثلة لمثل هذا التطبيق العقلي "للنظم". وهو ليس فقط لم يجد أية محاولات سابقة للتطبيق العقلي "للنظم"، وإنما لم يجد أية محاولات سابقة، يسترشد بها، للتطبيق العقلي الخالص لأي موضوع إنساني. فمشكلة الشيخ عبد القاهر كانت في الأساس على مستوى المنهج، فهو كان مواجها بالسؤال عن كيف يمكن معالجة موضوع "النظم" معالجة عقلية خالصة. وقد ثبت فيما بعد أن الإجابة كانت هي استخدام منهج العلوم الإنسانية.

ثانيا : نظرية النظم باعتبارها علما من العلوم الإنسانية

من ذلك يظهر واضحا كيف ظهرت الحاجة إلى علم "عقلي" يقوم كمعيار لتقييم الكلام الجيد من غير الجيد، هو علم "نظم" اللغة. وذلك في إطار قضية دينية هي قضية الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم. ولكن مجرد التقرير بالحاجة إلى هذا العلم لا تعني أن الشيخ عبد القاهر الجرجاني قد نجح في إنشاء علم بالمعنى الحديث للعلوم الإنسانية. فنحن نعلم اليوم أن الشيخ عبد القاهر قد قدم نظرية في النظم حققت تقدما كبيرا في اللغة العربية، وأنه أول من ميز بين علمي المعاني (النظم) والبيان (المجاز) في البلاغة العربية. ولكن كل ذلك لا يفيد بأن علم النظم هو من العلوم الإنسانية.

هناك كما ذكرنا شرطان يجب أن يتحققا حتى يمكننا الحكم بأن علم النظم كما طرحه الشيخ عبد القاهر هو علم إنساني بالمعنى العام. الأول هو استخدام خطوات المنهج العلمي بالمعنى العام، أي استخدام الاستقراء. والثاني هو أن يكون التطبيق إنسانيا عاما وليس مرتبطا بالدين الإسلامي أو بالثقافة الإسلامية أو باللغة العربية وخصوصياتها.

المنهج العلمي في العلوم الإنسانية

المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه العلوم جميعا هو التحليل. فالكون كله ينقسم إلى قسمين أساسيين، هو الموجودات الطبيعية والإنسان، ولذلك تنقسم العلوم إلى العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية. وكل منهما ينقسم إلى أقسام جزئية، فالعلوم الطبيعية تنقسم إلى الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا..الخ. والعلوم الإنسانية تنقسم إلى علوم النفس والتاريخ واللغة..الخ. وكل من العلوم الجزئية له مجاله المحدد والمنهج الملائم له.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولكن على الرغم من هذا التقسيم العام هناك سمات عامة للمنهج العلمي على العموم. فالمنهج العلمي بمعناه الحديث يعتمد على البدء من الوقائع، وليس من التصورات، وعلى استنتاج القانون العام للظاهرة بناء على ملاحظة الواقع، وهو ما اصطلح على تسميته بالاستقراء. والهدف الذي يهدف إليه العلم هو التوصل إلى القانون العام الذي يحكم الظواهر، وبالتالي القدرة على التنبؤ بالظواهر المستقبلية. ثم العمل على التحكم في الظروف التي تنتج الظاهرة فيمكن بالتالي التحكم في الظواهر الطبيعية لمصلحة الإنسان.

ولتحقيق الهدف من عملية البحث العلمي، وهو الكشف عن قوانين الطبيعة، ظهرت نتيجة للممارسة العلمية مجموعة من الخطوات التي تمثل في مجموعها خطوات المنهج العلمي بمعناه العام.

وتتمثل هذه الخطوات فيما يلي،

تحديد المشكلة العلمية وملاحظة الوقائع.

طرح الفرض العلمي بناء على ملاحظة الوقائع.

اختبار الفرض العلمي بشكل دقيق للتأكد من شموله لكل الحالات المتوقعة.

تفسير الواقع بواسطة الفرض وتحوله إلى قانون علمي.

استخدام القانون العلمي المستنتج للتنبؤ بالظواهر.

في حالة فشل القانون في التنبؤ يتم تعديل الفرض واختباره بشكل مستمر.

وكل خطوة من تلك الخطوات تختلف من علم إلى آخر، كما أن المفاهيم النظرية المرتبطة بكل منها هي محل جدل شديد حاليا في أدبيات فلسفة العلم. ولكن إذا اعتمدنا على المفهوم التقليدي للبحث العلمي تكون الخطوة الجوهرية في البحث العلمي هي عملية الاستقراء، أي استخلاص القانون العلمي من خلال ملاحظة الطبيعة(23).

وعملية الاستقراء هي في جوهرها عملية تعميم لملاحظات الطبيعة، وتختلف بشكل أساسي ما بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية. ففي العلوم الطبيعية تتمثل عملية الاستقراء، في الأغلب، في استنتاج قانون علمي رياضي بواسطة قياسات كمية للطبيعة. اما في العلوم الإنسانية فيكون استخلاص القاعدة، أو القانون، مبني على الفهم الإنساني للواقعة، وتفسيرها في سياق ملاحظتها، ثم استنتاج القاعدة بشكل كيفي تقديري(24).

فالواقعة التاريخية مثلا، هي واقعة إنسانية، ولكنها لا يمكن وضعها في الاعتبار باعتبارها واقعة علمية إلا من خلال فهم علاقتها بسياق الحوادث التاريخية والظروف المصاحبة لها. والقاعدة أو القانون المستنتج من مجموعة الوقائع التاريخية لا يمثل قانونا إلا في حدود الفهم الإنساني للظروف التي يمكن تطبيق القانون فيها..وهكذا. فالفهم هو مفهوم جوهري في تطبيق المنهج العلمي في العلوم الإنسانية.

النظم بصفته علما

يمثل علم "النحو" القواعد اللغوية للتعبير الصحيح، ولكن التعبير النحوي الصحيح لا يكفي لأن يكون التعبير صحيحا أو جيدا. فالنحو ليس إلا شرطا للتعبير الجيد أو التعبير الصحيح عن غرض المتكلم. وهذا الأخير، أي التعبير الجيد، لا يتأتى إلا من خلال إجادة ترتيب أو "نظم" الألفاظ. فالاستخدام الصحيح للغة هو استخدام الألفاظ بحسب معانيها التي تعارف عليها واضع اللغة، وبحسب قواعد النحو الخاصة باللغة، أما التعبير الصحيح فينتج من أسلوب "نظم" الألفاظ. هذا هو المفهوم الأساسي للشيخ عبد القاهر "للنظم".

وهو يوضح ذلك في النص التالي،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"واعلم أن ليس "النظم" إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها "(25)، وفي نفس الوقت

"واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك" (26).

التفرقة بين النظم والمجاز

وعلم "النظم" في هذه الحالة هو العلم بالكيفية وبالقواعد التي تحكم تعلق الكلم ببعضها البعض والتي تحكم أسباب هذه العلاقات، والتي تجعل "النظم" نظما صحيحا أو جيدا. ويتضمن ذلك أن تقدير جودة النظم من عدمه لا يرتبط بالشعور الذاتي أو الإحساس وإنما بأسباب محددة خاصة بعلاقات الكلم، أي بأسباب ورود كلمة معينة في مكان معين وليس في مكان آخر في النص.

فالنظم باعتباره ترتيبا للألفاظ لأسباب محددة وللتعبير عن معان محددة، هو أمر مختلف عن الخيال والتعبير المجازي. فالمجاز عند الشيخ هو علاقات بين المعاني، فالنظم يفيد معنى معين، ولكن هذا المعنى يمكن أن يكون مجازيا، أي على غير الحقيقة. أما المعنى المقصود "الحقيقي" فيكون ناتجا عن نوع من العلاقة "المعنوية" بين المعنى الناتج عن نظم الألفاظ وبين المعنى المقصود. ويحرص الشيخ في مقدمته لكتاب "دلائل الإعجاز" على التفرقة بين النظم والمجاز في اللغة، وبيان أن ميزة المجاز تتركز لا في الألفاظ المجازية ذاتها وإنما في طبيعة العلاقة "المعنوية" التي يثبتها النظم. فالكناية تجعل المعنى آكد وأشد، والتشبيه يؤدي إلى قوة إثبات الصفة..وهكذا. ويعبر عن ذلك في النص التالي،

"اعلم أن سبيلك أولا أن تعلم أن ليست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس [أي المجاز] على الكلام المتروك على ظاهره..ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياها. تفسير هذا : أن ليس المعنى..أنك لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته، بل المعنى أنك زدت في إثباته، فجعلته أبلغ وآكد وأشد" (27).

أي أن المعاني المجازية لا تنتج أثرها في الفصاحة والبلاغة لأجل ذاتها، وإنما بسبب أسلوب اثبات العلاقة المجازية، وهذا الأسلوب ليس إلا "نظم" الألفاظ. وكانت التفرقة بين "النظم" باعتباره علاقات بين الألفاظ وبين المجاز باعتباره علاقات بين المعاني هي السبب في تفرقة الشيخ عبد القاهر، لأول مرة في البلاغة العربية، بين علمي المعاني (النظم) والبيان (المجاز) (28) .

ولتأكيد الفصل بين المجالين كان مؤلفه "دلائل الإعجاز" متضمنا مفهومه "للنظم" ومؤلفه "أسرار البلاغة" متضمنا مفهومه "للمجاز" أو البلاغة. وقد تضمن مؤلفه "دلائل الإعجاز" قسما محدودا عن "المجاز" بغرض تقرير العلاقة بين "النظم" باعتباره المفهوم الأساسي في جودة التعبير وبين "المجاز" باعتباره مكملا له. عند ذلك يكون الشيخ عبد القاهر قد تمكن من خلال مدخله لمعالجة التناول العقلي لمفهوم "النظم" من تخليص هذا المفهوم من علاقاته سواء بالجانب الديني الإيماني أو بالجانب الخيالي المجازي. وبذلك أصبح جاهزا للمعالجة من الناحية العقلية الصرف. وذلك باعتبار "النظم" ليس سوى تعلق الكلام بعضه ببعض، وأن العلاقات بين الكلام هي علاقة قابلة للمعرفة العقلية.

أي أن "النظم"، عند الشيخ، هو بمثابة الجانب العقلي العلمي في التعبير اللغوي، يقابله الجانب الفني المتمثل في أغراض النظم والعلاقات المجازية. وذلك كما في علم "الموسيقى" مثلا، في ذلك العصر، والذي كان يعد قسما من الرياضيات. فالموسيقى هي من جانب النسب الرياضياتية "علم" ، أما من جانب الأغراض والتعبير عن الأحاسيس الإنسانية وعلاقاتها هي "فن". والإثنان معا يؤلفان الجانب العقلي (العلمي) والجانب الشعوري

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(الفني) للموسيقى. وكل الفنون لها قواعد "علمية" عقلية تبني عليها، ولها في نفس الوقت أساليب شعورية تعبيرية. وحرص الشيخ عبد القاهر على طرح مفهوم "عقلي" للنظم هو في الأساس مبني على تقسيم التعبير اللغوي إلى قسمين، الأول "عقلي" (النظم)، وهو موضوع كتابه "دلائل الإعجاز"، والثاني "شعوري" (المجاز)، وهو موضوع كتابه "أسرار البلاغة".

الاعتماد على العقل لتأسيس علم "النظم"

بعد أن استبعد الشيخ عبد القاهر العناصر غير العقلية المرتبطة بالقضية، متمثله في الجانب الديني في الإعجاز، وخصص له "الرسالة الشافية"، والجانب المجازي في اللغة، وخصص له "أسرار البلاغة". بعد ذلك شرع في التأسيس لمفهومه لنظم اللغة باعتباره علما عقليا بشكل تام. لذلك حرص الشيخ على تأكيد مبادئ العقلانية التي تقوم عليها أي معالجة علمية لأي موضوع في العلوم الإنسانية. وعلى أنها مبادئ عامة ينبغي الالتزام بها باعتبارها الأساس الذي تقوم عليه المعالجة المنهجية الدقيقة للعلم المحدد.

لذلك نظر الشيخ عبد القاهر إلى مفهوم النظم نظرة عالية التجريد باعتباره ليس سوى تنظيم وترتيب الكلمات حسب إرادة "الناظم" بشرط احترام قواعد النحو. ثم اعتبر أن عملية النظم ذاتها ليست سوى عملية علمية تقوم على تطبيق قواعد ثابتة مثلها مثل أي عملية فنية "تقنية" دقيقة تعتمد على العلم. فالمادة الخام هنا هي الألفاظ، المتفق على معناها عرفا، وقواعد النحو التي تحدد كيف يمكن أن تنتج مجموعة من الألفاظ معنى.

ولكن أساليب ترتيب الألفاظ مع احترام قواعد النحو عديدة، وهذه الأساليب المتعددة تعطينا القدرة على انتاج معان عديدة لا حدود لها. كما أن أي تغيير في ترتيب ونظم أي مجموعة من الألفاظ يؤدي مباشرة إلى تغيير المعنى، ولهذا السبب تتفاضل المعاني الناتجة عن النظم إلى درجة لا حد لها. ولذلك يقيم الشيخ تشابها أو تماثلا بين صياغة النظم، ومادته الخام الألفاظ وقواعد النحو، وبين صياغة الحلي، ومادته الخام الذهب والفضة، أو بينه وبين صياغة الرسم والنقش ومادته الخام الألوان والأصباغ، كما في النص التالي،

"ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار"(29).

والفصاحة في النظم يجب أن تعرف دقائقها كما يجب أن تعرف الصناعات،

"وجملة الأمر أنك لن تعلم في شيء من الصناعات علما تمر فيه وتحلي، حتى تكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب، ويفصل بين الإساءة والإحسان، بل حتى تفاضل بين الإحسان والإحسان، وتعرف طبقات المحسنين "(30).

وكما أن الصياغة "صناعة" و"علم" يمكن معرفة الصواب والخطأ فيه، تكون الفصاحة "علما" يمكن معرفة الصواب والخطأ فيه،

"وإذا كان هذا هكذا علمت أنه لا يكفي في علم "الفصاحة" أن تنصب لها قياسا ما وأن تصفها وصفا مجملا، وتقول فيها قولا مرسلا، بل لا تكون من معرفتها في شيء، حتى تفصل القول وتحصل، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم وتعدها واحدة واحدة، وتسميها شيئا شيئا، وتكون معرفتك معرفة الصنع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذي في الديباج، وكل قطعة من القطع المتجورة في الباب المقطع "(31).

وتأكيدا على أن النظم هو علم عقلي بشكل كامل يهاجم الشيخ عبد القاهر بشدة التقليد واستقبال الآراء السابقة دون نقد أو تمحيص ويشدد على ضرورة إعمال العقل ويتهم من لا يحرص على ذلك

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالكسل ونقص الهمة، وذلك في مواضع متعددة. ففي تأثير ذيوع الرأي وانتشاره دون دليل والتأثير السلبي لذلك على عموم المثقفين، يبين :

"واعلم أن القول الفاسد..إذا كان صدره عن قوم لهم نباهة..في أنواع من العلم غير العلم الذي قالوا ذلك فيه، ثم وقع في الألسن فتداولته ونشرته وفشا وظهر..صار ترك النظر فيه سنة والتقليد دينا، ورأيت الذين هم أهل ذلك العلم وخاصته..وجدتهم قد أعطوه مقادتهم..وأوهمهم النظر إلى منتماه ومنتسبه، ثم اشتهاره وانتشاره..وكم من خطأ ظاهر ورأي فاسد حظي بهذا السبب عند الناس حتى بوأوه أخص موقع في قلوبهم"(32).

ثم يشكو من سيطرة التقليد على العقول فيما يخص علم الفصاحة،

"وذاك أنك ترى الناس كأنه قد قضي عليهم أن يكونوا في هذا الذي نحن بصدده على التقليد البحت، وعلى التوهم والتخيل..قد صار ذاك الدأب والديدن، واستحكم الداء الاستحكام الشديد..وذاك لأن الاعتقاد الأول قد نشب في قلوبهم وتأشب بها"(33).

وهو يكرر هجومه على التقليد في مواضع متعددة من مؤلفه، ويرجع عدم تقبل المجتمع للفكر العلمي الصحيح إلى استحكام التقليد في العقول، حتى أنه يصف ذلك بأنه داء شديد. وهو في ذلك يعد داعية لإعمال العقل ونقد فكر السابقين مهما عظم شأنهم ومهما كانت سيطرتهم على العلوم، وهو الأمر الذي يتفق مع مفهومنا للعلم الحديث.

فالفصاحة عند الشيخ عبد القاهر علما دقيقا يمكن تتبع عناصره بدقة وليست فنا يتم تقديره إجمالا بصورة تقديرية ذاتية. فهو من ناحية يشبه معرفة "الفصاحة" بمعرفة الأعمال الصناعية ذات النظم الدقيقة مثل الخيط في النسيج وقطع النجارة في الباب وقطع الحجر (الآجر) في البناء. و"الناظم" هو بمنزلة الصانع الحاذق الذي يعرف دقائق صناعته وأساليب إجادتها وأسباب تفاضل صنعة عن صنعة. ومن ناحية ثانية يشترط، بناء على هذا التمثيل، أن يكون العلم "بالفصاحة" تفصيليا حتى "تضع اليد على خصائص النظم واحدة واحدة".

يتبع...

الهوامش:

[1] انظر، سمير أبو زيد، 2005، "منهج التجديد الديني عند الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني"، مجلة كلية دار العلوم جامعة القاهرة، العدد 36، صـ161 – 213.

[2] David Cooper, 1996, "World Philosophies – An Historical Introduction", Blackwell, Pp. 226.

3 يوضح والتر ستيس أنه رغم التداخل الزمني بين العصر الوسيط والحديث "لا يزال في استطاعتنا أن نقول أن "صورة العالم" عند رجل العصر الوسيط قد سيطر عليها الدين، في حين أن "صورة العالم" عند رجل العصر الحديث قد سيطر عليها العلم"، انظر، والتر ستيس، 1952/1998، "الدين والعقل الحديث"، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي القاهرة، صـ23.

4 يمثل العمل الكبير لمونتسكيو (ت 1755) "روح القوانين" عملا تأسيسيا في الفكر الأوروبي الحديث لفكرة أن وجود قوانين كونية ثابتة هو مبدأ يشمل العلاقات الإنسانية مثلها مثل الطبيعة سواء بسواء.

5 هناك أعمال عديدة في الغرب نفسه تؤيد هذا الطرح، من ذلك، توبي أ. هاف،1997، "فجر العلم الحديث، الإسلام- الصين- الغرب"، الجزء الأول، عالم المعرفة، رقم 219، الكويت.

6 أحمد صبحي منصور، "في فلسفة التاريخ"، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، بدون تاريخ، صـ 135.

7 يقدم على سامي النشار في "نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام"، ملخصا لخصائص البحث التجريبي في العالم الإسلامي صـ 35، ثم للعلاقة بين الإسلام وعلوم الكلام وأصول الفقه والاجتماع صـ 54- 55، والفكرة العامة هي أن المسلمين استخدموا مناهج البحث العلمي في العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية على السواء. على سامي النشار، 1995، "نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام – الجزء الأول"، دار المعارف، الطبعة التاسعة، القاهرة.

8 انظر الجزء الثالث من البحث حيث سنتعرض لموقف الفكر المعاصر من أعمال الشيخ.

9 دلائل الإعجاز"، للشيخ عبد القاهر الجرجاني، تعليق محمود محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000 الصفحة "د".

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

10 يستعرض والتر ستيس مشكلة التعارض بين المجالين في الفقرة التالية، "المشكلة الأولى هي ما إذا كان علينا أن نقبل النظرة العلمية إلى العالم على أنها صحيحة، بل على أنها الحقيقة الوحيدة، أو ما إذا كانت النظرة الدينية صحيحة أو أنها تنطوي على بعض الحقيقة التي أهملتها النظرة العلمية. أو ما إذا كان يمكن التوفيق بين هاتين النظرتين على أي نحو من الأنحاء، تلك هي بالقطع المشكلة الأكثر أهمية"، وهذا النص يبين أن هذه الإشكالية هي إشكالية جوهرية حتى في الفكر الغربي العاصر انظر، والتر ستيس، 1998، "الدين والعقل الحديث" ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، صـ245.

11 "الرسالة الشافية في الإعجاز" للشيخ عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة الأولى، 1998.

12 "دلائل الإعجاز"، سبق الإشارة إليه.

13 دلائل الإعجاز صـ249.

14 الرسالة الشافية صـ 28.

15 الرسالة الشافية صـ 42.

16 دلائل الإعجاز صـ6.

17 السابق صـ7.

18 السابق صـ39.

19 السابق صـ37.

20 دلائل الإعجاز صـ 41، ويظهر بشكل واضح من هذا النص أن الشيخ إنما يتحدث عن "منهج" جديد. فالمنهج هو الذي يؤمن الشخص من أن "يغالط في دعواه"، كما أن اتباع المنهج هو نوع من "التقليد" ولكنه يؤدي إلى العلم "عالما في صورة مقلد"، والمنهج يؤدي إلى تبين الحق رغم أن هذا الحق لا يظهر إلا بعد تطبيق المنهج فيبدأ من الشك وينتهي باليقين "مستبينا في صورة شاك". وهذا المنهج هو النقيض المباشر لمنهج علم الكلام الذي كان سائدا في عصره حيث الدفاع عن قضية كلامية مثل الإعجاز لا يتم إلا بالأسلوب الدفاعي الذي يعتمد على الحجج التي ترتكز على معرفة الحقيقة مسبقا حتى ولو كان ذلك "بالمغاطة في الدعوى"، ويكون الشخص على العكس، "مقلدا في صورة عالم"، و"مستبينا بدون شك على الإطلاق".

21 السابق صـ64 – 65.

22 موقف الشيخ عبد القاهر هنا هو موقف صحيح إذ أنه من الثابت أنه لم تنشأ نظرية متكاملة في علم المعاني منفصلة عن المجاز قبل الشيخ ويقر اللغويون بأنه أول من وضع علم المعاني (أي النظم)، وأول من فرق بين علمي المعاني والبيان. راجع تفصيلات ذلك في القسم الثالث من هذا البحث.

23 يذكر عادة أن أول عمل يطرح مفهوم المنهج العلمي بصورة نظرية هو عمل فرانسيس بيكون(ت 1626م) المشهور "الأورجانون الجديد" (أو العلامات الصادقة لتأويل الطبيعة)، والذي تركز على طرح مفهوم الاستقراء بشكل مباشر. ثم تلا ذلك أعمال جون ميل (ت1873) وآخرين في تحليل خطوات المنهج العلمي. وهذه الأعمال تعبر عن تصور المنهج العلمي في الفكر الحديث حتى أوائل القرن العشرين، وهي الفترة التي نقارن بين عمل الشيخ عبد القاهر وبين المفاهيم العلمية التي طرحت فيها.

24 هذا هو التعريف التقليدي للاستقراء، ويسمى في المنطق بالاستقراء الناقص. ولكن مفهوم الاستقراء مر بمشكلات فلسفية عميقة خلال القرن العشرين نتيجة للاعتراف المتزايد بدور العقل في اكتشاف الطبيعة. مما أدى إلى التخلي عن الاستقراء التقليدي في نهاية الأمر. ولكن إذا أخذ الاستقراء بالمعنى العام، أي الاستدلال على قوانين الطبيعة من خلال ملاحظتها، فيمثل المفهوم الأساسي في المعرفة العلمية. وفي عرض حديث لمفهوم الاستقراء يطرح جون نورتون ثلاثة مفاهيم للاستقراء، "الاستقراء التعميمي"، و"الاستقراء الفرضي"، و"الاستقراء الاحتمالي"، انظر،

John Norton, 2005, "A Little Survey of Induction," in P. Achinstein, ed., *Scientific Evidence: Philosophical Theories and Applications*. Johns Hopkins Univ. Press. pp. 9-34.

25 دلائل الإعجاز صـ 81.

26 السابق صـ 55.

27 السابق صـ71.

28 قارن ذلك برأي د. نصر حامد أبوزيد "وهكذا حمل عبد القاهر ذلك التعارض بين "النظم" و "المجاز" بحيث جعل مفهوم "النظم" يستوعب في داخله "المجاز" ، ولكنه ظل – حصرا لهوة الخلاف بينه وبين أسلافه- يعترف بنوع ما من الحسن المستقل للمجاز بأنماطه المختلفة" اشكاليات القراءة وآليات التأويل صـ177 ويقول في بيان وجهة نظر عبد القاهر في الفرق بين "النظم" و"المجاز"، "إننا نجده [أي عبد القاهر] يناقش قضايا المجاز من زاوية الدلالة، على أساس التفرقة بين نوعين من الدلالة، يرتبط كل منهما بنوع من الكلام. فثم نوع من الكلام نصل إلى دلالته من خلال علاقات التفاعل بين الألفاظ ومعاني النحو فقط، وثم نوع آخر نصل إلى دلالته بطريقة أكثر تعقيدا وتركيبا" اشكاليات القراءة صـ180.

29 دلائل الإعجاز صـ254، وهذا التشبيه موجود في الأدبيات قبل الشيخ عبد القاهر ولكنه استخدمه لأنه يتفق مع قضيته.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

30 السابق صـ37، وهنا يظهر أن الشيخ لا يكتفي بالتشبيه بين النظم والصناعات الدقيقة وإنما يطلب العلم الدقيق بالنظم مثلما يكون العلم بالصناعات الدقيقة ضروريا.

31 السابق نفس الصفحة، وهذا التشبيه موجود أيضا عند من تكلموا في النظم قبل الشيخ، ولكنه يشدد هنا على المعرفة العقلية الدقيقة بالموضوع وليس على المعرفة الشعورية الذاتية به كما يرى من سبقوه.

32 دلائل الإعجاز صـ464- 465، وفي هذا النص يقصد الشيخ علماء الكلام الذين برعوا في هذا العلم ولكنهم تكلموا أيضا في النظم، وهم في نظره غير متخصصين في اللغة "لهم نباهة في العلم غير العلم الذي قالوا ذلك فيه"، مثل القاضي عبد الجبار من المعتزلة أو الباقلاني من الأشاعرة الذي تناولوا النظم بشكل شعوري ذاتي غير عقلي، من وجهة نظره.

33 السابق ص365، و"الاعتقاد الأول" هنا، كما يرى الشيخ، هو الاعتقاد بأولوية اللفظ على المعنى كما طرحه علماء الكلام.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com